بيت الدود ودار الخمود

القبر

أزهري أحمد محمود

مصدر هذه المادة :



دار ابن خزيمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله واهب النِّعَم. ومُنْشئ الخلق بعد الرَّميم والعَدَم.. والصلاة والسلام على نبيه سيد الأمم. وعلى آله وأصحابه أهل المفاخر والكرم.

وبعد:

أخي المسلم: هنالك وفي تلك الدِّيار الكئيبة, الحزينة, ديارٌ مَن دخلها انقطعت صلته بالأحياء, ديارٌ من دخلها ودَّعه الأهل والإخوان وداع من لا يُرْجَى لقاؤه.

هنالك! وقد وقفت جماعة وهم يحفرون قبرًا ليُودِعُوه ميتًا ليصبح من سكان تلك الدِّيار الموحشة! ولكن! إذا برجل يتقدَّم نحو القبر, إنه زينة العبَّاد! مالك بن دينار رحمه الله فيقف على القبر وهو يقول: مالك غدًا هكذا يصير؟! وليس له شيء يتوسَّده في قبره!

فلم يزل يقول: غدًا مالك هكذا يصير حتى خرَّ مغشيًا عليه في جوف القبر! فحملوه فانطلقوا به إلى منزله.

أخي: إنه (القبر!) بيت الوِحْدة.. ودار الوَحشة.. وموطن الظُّلمة.

صاحبه في سَهُود.. وساكنه في خُمُود..

أنيسه الصَّـــديد والـــدُّود.. دار الأمـــوات.. ومنزل الحسرات.. ومستودع الكربات..

أخي: ما أفظع القـــبر من مـــذكور! وما أشده على الأحياء من مَـدْخُور! فـزعت من فظاعته القلوب! وهانت دونه الخُطُوب!

فكم من قلب صـــالح مُخبت ارتجف عند ذكـره.. وسـالت مَـدامعُ صـاحبه عند رؤيته وقُربه.

فهـذا التقي النقي ذو النُّورين عثمـان بن عفان كـان إذا وقف على قـبر يبكي حـتى يبلَّ لحيته.

فقيل لــه: تــذكر الجنة والنــار فلا تبكي! وتبكي من هذا؟!

قال: إن رسول الله قال: «**إن القــبر أول منازل الآخـرة فـإن نجا منه فما بعده أيسر منـه! وإن لم ينج منه فما بعده أشد منه!**»

قــال: وقــال رســول الله : «**ما رأيت منظــرًا قط إلا والقــبر أفظه منه.**» رواه الترمذي وابن ماجه/ صحيح ابن ماجه: 4343

أخي في الله: يا لهول الخطب الفـادح!

ويا لهول يومنا في جوف الثَّرى!

أخي: لا راجع من المــــــوتى فيخبرنا عن تلك الخُطُــوب! ولا مُطَّلع من الأحيــاء على تلك الأهوال والكُرُوب.

أخي: وحشة.. وظلمة؟؟ وأهــوال, ودُود! فيـــا اللـــه! أين المهـــرب من تلـــك الحفـــرة؟! أم أين الفـــرار من ذلـــك اللَّحد؟!

وعَظتْكَ أجْداثٌ صُمُتْ
ونَعَتْكَ أزمنَةٌ خُفُتْ
وتَكلَّمتْ عن أوجُهٍ تبلى
وعن صُوَرٍ سُبُتْ
وأَرْتْك نفسَك في القُبُور
وأنتَ حيٌّ لم تَمُتْ

أخي المسـلم: إذا تـذكَّرت القـبر فتـذكَّر الظُّلْمة! فيا الله! ونحن في دار الـدنيا وفي الأرض الواســعة؛ إذا أُطْفئ المصـــباح عمَّ الظلام! وأطلَّت الوَحشة! فيَا للمَصَاب كيف سيكون حال من أطبقوا عليه الثَّرى؟!

قـال رسـول الله ﷺ: **«إن هذه القبـور مملـــــوءة ظُلمة على أهلها وإن الله عز وجل يُنورها لهم بصلاتي عليهم»** رواه البخاري ومسلم.

أخي: وإذا تـذكَّرت القـبر فتـذكَّر ضَمَّــه! فما أفظعه من يــوم أخي يومًا بنطيق عليك القـــبر!! فلا تَسَــــل أخي عن فظاعة ذلك وهوله!

أخي: أتُرَانا نـــــاجين من هَـــــوْل تلك الضَّمَّة؟!

أخي: ألا حدَّثتني عن نفسك! هل تذكرت يومًا تلك اللحظات الفيظعة؟!

أخي: إن لم تتذكَّر! فتذكَّر، فواشدة يــوم يضيق فيه القبر ليَضُمَّ ذلك العبد الضَّعيف!!

أخي: وكم يصـيب الفـزعُ الأفئـدة عنـدما تعلم أن الصـالحين لم ينجـوا من هـول تلك الضَّمَّة!! ألا ترى إلى سعد بن معـاذ سـيد الأنصـار، وصـاحب المواقف المشـهورة في نصرة النبي ، والذي اهـتزَّ عـرش الـرحمن لموتــه! وشــهد تشــييعه ســبعون ألفًا من الملائكـة! ها هو يخـبر عنه النـبي : «**هـذا الــذي تحــرَّك له العــرش! وفتحت له أبواب السماء! وشـهده سـبعون ألفًا من الملائكة! لقد ضُمَّ ضَـمَّة ثم فُـرج عنــه!**» رواه النســائي: صـحيح النســائي: 2054.

قال ابن أبي مليكة رحمه الله: (ما أُجــير

من ضَـغطة القـبر أحـد! ولا سـعد بن معـاذ الــذي منــديل من مناديله – أي في الجنة – خير من الدنيا وما فيها!).

أخي: يا لهول تلك الـديار! ويا لكـرب من حلها للقرار! أهوالها لا تُطاق.. وشــدائدها لا يكشفها إلا الواحد الخلَّاق..

أخي: إذا وضـعوك في قـبرك نـزل عليك ملكـان ليسـألانك! فما أشـدها من لحظـات على الغافلين! وما أسـوأها على المُرتـابين المكذبين!

وأما المؤمنـون الصـادقون؛ فما أسـعدها عليهم من لحظـــــات.. وما أهنأها لهم من ساعات..

أخي: تأمَّل معي تلك اللحظـــات! وسل الله تعالى الرضوان والتوفيق.

قال رســول الله ﷺ: «**فتعاد روحه في جســده فيأتيه ملكـــان فيجلســـانه فيقولان له: مَنْ ربك؟!**

فيقول: ربي الله.

فيقولان له: ما دينك؟!

فيقول: ديني الإسلام.

فيقولان لـه: ما هـذا الرجل الـذي بُعث فيكم؟!

فيقول: هو رسول الله ﷺ.

فيقولان له: وما علمك؟!

فيقول: قرأت كتاب اللـه، فـآمنت به وصدقتُ.

فينادى منادٍ في السماء: أن صدق عبدي، فأفرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له بابًا إلى الجنة.

قــال: فيأتيه من روحها وطيبهــا! ويفسح له في قبره مد بصره!

قـــال: ويأتيه رجل حسن الوجـــه، حسن الثيـاب، طيب الـريح، فيقـول: أبشر بالذي يسرك، هـذا يومك الـذي كنت توعــد! فيقــول لــه: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير. فيقول: أنا عملك الصــالح! فيقــول: رب أقم الســـــاعة حـــــتى أرجع إلى أهلي ومالي» رواه أحمد وغيره.

وفي رواية للترمذي: «**إذا قبر الميت-** أو قال: **أحدكم – أتاه ملكان أســودان، أزرقان، يقال لأحدهما المنكر والآخر النكير!**

فيقـولان: ما كنتَ تقـول في هـذا الرجل؟!

فيقــول: ما كــان يقــول: هو عبد الله ورسوله، أشِـهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله.

فيقـولان: قد كنا نعلم أنك تقـول هذا.

ثم يفسح له في قـــبره ســـبعون ذراعًا في سـبعين، ثم ينـور له فيـه، ثم يقال له: نم!

فيقـــــــــــــول: أرجع إلى أهلي فأخبرهم!

فيقولان: نم كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليــه! حـــتى يبعثه الله من مضجعه ذلك» السلسـلة الصحيحة: 1391.

أخي: تلك هي حـــال أهل الصـــدق من المؤمنين؛ الـذين عمَّروا أيـامهم بطاعة الله تعالى، والتماس رضوانه، فلقاهم جزاء أهل الصدق.

وأما الكافرون والمرتابون وأهل النفــاق، فما أٍسوأ ما وجدوه في قبورهم! وما أفظع ما نالوه جـزاء لأعمـالهم؛ إذا ردت أرواحهم ليشهدوا تلك الأهوال!

فها هو يخبرنا عن مصـــــير هـــــؤلاء

الأِشـقياء! إذ يقـول ﷺ: «**فتعاد روحه في جســده، ويأتيه ملكــان فيجلســانه، فيقولان له: من ربُّك؟!**

فيقول: ها ها لا أدري!

فيقولان له: ما دينك؟!

فيقول: ها ها لا أدري!

فيقولان لـه: ما هـذا الرجل الـذي بعث فيكم؟!

فيقول: هاه هاه لا أدري!

فينادي منـاد من السـماء أن كـذب فأفرشُـوا له من النـار! وافتحـوا له بابًا إلى النـــــــار! فيأتيه من حرها وسمُومها! ويُضَـيَّقُ عليه قـبره حـتى تُخْتلف فيه أضــــــلاعه! ويأتيه رجل قــبيح الوجــه؛ قــبيح الثيــاب، مُنْتن الرِّيح! فيقول: أبشر بالذي يسـوؤك! هذا يومك الذي كنت توعـد. فيقـول: من أنت؟! فوجهك الوجه يجيء بالشَّـر. فيقـول: أنا عملك الخـبيث!! فيقــول: رب لا تُقم الســاعة!» رواه أحمد وغيره.

وفي رواية للبخــــاري: «**ثم يُضــــرب بمطرقة من حديد ضـــــربة بين أذنية**

فيصـيح صـيحة يسـمعها من يليه إلا الثقلين».

أخي: تلك هي النتيجة التي سـيعرفها كل عبد إذا أهالوا عليه التراب!

فما أعد المؤمنين الصـادقين يـوم تكـون قبـــورهم روضة من ريـــاض الجنـــان، وما أِشـقى المرتـابين المكـذبين يــوم تكــون قبورهم حُفْرةٍ من حُفَر النِّيران!

أخي: ما أٍسعدها للمؤمنين الصادقين من لحظات يوم يـرى المـؤمن مقعـده في الجنة!

رأيت الحق لا ولا تخفي شواكلهُ
ألا فانظُرْ لنفسك زادٍ أنتَ حاملُهُ
لمنزل وحدة بين المقَابر أنت نازله
قصير السمك قد عليك به جَنادله

ولتعلم أخي أنه ما من عبد إلا وله مقعدان؛ مقعد في النـار، ومقعد في الجنَّة! فـإن كـان العبد من أهل الجنة رأى مقعـده فيها ورأى مقعـده في النــار إن كــان عمل بعمل أهل النــار! فــيزداد ســروره إذا أبصر ذلك.

قــال رســول الله ﷺ: «**فيقــال: انظر إلى مقعـدك من النـار أبـدلك الله به**

مقعدًا من الجنة» رواه البخاري.

وأما المرتـــاب والمنـــافق فـــيزداد غمه وحزنمه إذا أبصر مقعـده في الجنة إن كـان عمل بعمل أهل الجنَّة!

أخي في اللـــــــــه: ما أفظعها من لحظـات! تلك اللحظـات الـتي يُسـأل فيها العبد في قبره!

فليت شـعري أخي مـاذا أعـددت لهـا؟! عملاً صـالحًا؟! أم قلبًا خاشـعًا؟! أم لسـانًا ذاكـرًا؟! فيا لِكَـرْب! من نـزل قـبره مُفرِّطًا مٌقصِّرًا!

أخي: لا تغفلنَّ أن كثر التعـوذ من عـذاب القــــبر! عسى الله أن يجعل لك فيه فرجًا يوم لا فارج لكُرُباته إلا هو تبارك وتعالى.

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: إنَّ رسـول الله كـان يعلِّمهم هـذا الـدُّعاء كما يعلِّمهم السـورة من القـرآن! يقــول: **«قولوا: اللهم إنا نعوذ بك من عـذاب جهنم، وأعـوذ بك من عـذاب القـبر، وأعوذ بك من فتنة المسـيح الـدجال، وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات»** رواه مسلم.

أخي: هو (عـذاب القـبر!) ما أشد هولـه!

وما أفظعــه! أرأيت أخي كيف أخفــاه الله تعـــالى عن الأحيـــاء؛ لأنهم لا يطيقـــون مشـــاهدته أو ســـماعه! فلو شـــاهدوه أو سمعوه لما دفن حيٌّ ميتًا!

قــال النــبي : «**لــولا أن لا تــدافنوا لدعوات الله أن يسـمعكم من عـذاب القبر**» رواه مسلم.

أخي: تذكر يومًا أنت فيه وحيـدًا! منفـردًا عن الخلق! ولا أنيس! ولا جليس!

أخي: أتـــــــدري من الجليس في تلك الوَحْشَة؟!

إنه (العمل الصالح!) نعم الزاد في الـدنيا والآخـــــرة.. ونعم الصـــــديق إذا أوحشك صـديق.. ونعم الرفيق يـوم يسـلمك الرفيق إلى الثرى!

قال رســول الله : «**يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد! يتبعه أهله وماله وعملـــه، فـــيرجع أهله وماله ويبقى عمله**» رواه البخـــــاري ومسلم.

أخي: لا تكونن ممن غفل عن الصـالحات وزهد في الطاعــات! فما أحوجك أخي إليها في يــوم التثــبيت! يــوم ســؤال الملكين إذا

انفردا بك في قبرك! يومها يثبت الصادقين مولاهم تعالى ويلهمهم الحجة.. إذ أنهم عاملوه تعالى في دار الدنيا بالصدق والإخلاص.

قال النبي ﷺ: «**إذا أقعد المؤمن في قبره أتي، ثم شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، فذلك قوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾**» [إبراهيم: 27] رواه البخاري ومسلم.

قال نصر بن محمد السمرقندي: (ويقال: التثبيت في أربعة أحوال:

أحدها: عند الموت.

والثاني: في القبر حتى يجيب بلا خوف.

والثالث: عند الحساب.

والرابع: عند الصراط حتى يمر كالبرق الخاطف).

أخي المسلم: ما أحوجك إلى الثبات غدًا إذا نزلت قبرك! وأحاط بك الملكان!

أخي: وكم كان نبينا ﷺ رحيمًا ورفيقًا بأمته كما يحدثنا عنه عثمان بن عفان ﷺ قال: كان النبي ﷺ إذا فرغ من دفن الميت وقف عليه

فقـال: «**اسـتغفروا لأخيكم وسـلوا له بـــالتثبيت فإنه الآن يســـأل**» رواه أبو داود/ صحيح أبي داود: 3221.

أخي: أعاذني الله وإياك من فتنة القـبر.. أخي ما أعظم خســران أولئك الغــافلين إذا نزلـــوا القبـــور! وفـــارقوا النعيم والـــدور! فواكربَهم! نسَوْا بيت الظُّلمة والدُّود! نسـوا يوم الوَحشة والسُّهُود!

عن البراء بن عازب قال: بينما نحن مع رسول الله إذ بصر بجماعة فقال: «**علام اجتمع هؤلاء؟**» قيل: على قبر يحفرونه.

قال: ففزع رسـول الله فبـدر بين يـدي أصحابه مُسرعا! حتى انتهى إلى القبر فجثا عليـه! قـال: فاسـتقبلته من بين يديه لأنظر ما يصنع.

فبكى! حـتى بل الـثرى من دموعــه! ثم أقبل علينـــا، قـــال: «**أي إخــواني, لمثل اليـوم فأعـدُّوا!**» رواه أحمـد/ السلسـلة الصحيحة: 1751

أخي: يـــا ويـــل نفس لم تعمـــل الصالحات حتى زارت ظلمة القبور! ألا أخي فلتذكُر تلك الظُّلمات.. إذا غـادرك القريب والبعيد بين الأموات..

كأن الأرضِ قد وقد أخرجت مما
كأُني يوم يحثو مهيلاً لم أكن في
كأن القوم قد وكلٌّ غيرُ مُلتفت
كأن قد صرْتُ ومُرْتَهنًا هناك بما

أخي في الله: تذكر القبــور.. وعُد نفسك من سكان تلك الدور.. عساك أن تكون من أهل السرور.

* قـال سـفيان الثـوري رحمه اللـه: (من أكثر من ذكر القبر وجـده روضة من ريـاض الجنة، ومن غفل عن ذكره وجده حفرة من حفر النار!).

أخي: هلاَّ عجبتَ معي من أولئك الصالحين الذين كان تـذكر المـوت والقبـور يتردد على قلوبهم كتردد أنفاسهم!

* كـان هشـام الدسـتوائي رحمه الله إذا طُفئ المصباح غشيه من ذلك أمر عظيم!

فقالت له امرأته: إنه يغشـاك أمر عظيم عند المصباح إذا طفئ؟!

قال: إني أذكر ظلمة القبر!

أخي: ما أقسى هـذه القلـوب! لا المـوت يفزعها! ولا القبر يخوفهـا! كأنما خلقت من الحجر!

أخي: رحم الله أقوامًا كـــــانوا إذا قست

قلـوبهم ذكروها المـوت.. وخوفوها بـالقبر والنـيران.. فهـذا الصـالح القـانت الربيع بن خثيم رحمه الله تلميذ ابن مسعود وأشـبه الناس به! كان رحمه الله قد حفر في داره قـبرًا! فكـان إذا وجد في قلبه قسـاوة دخل فيه فاضطجع فيـه! ومكث سـاعة ثم قـال: **﴿حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُـونِ * لَعَلِّي أَعْمَـلُ صَـالِحًا فِيمَا تَرَكْتُ﴾**.

ثم يقـــــول: يا ربيع قد أرجعت! فاعمل الآن قبل أن لا تُرجع!!

* وكان يزيد الرقاشي رحمه الله يقــول: أيها المقبور في حفرته! المتخلي في القـبر وحدتـــــه! المســـــتأنس في بطن الأرض بأعمالـــــه! ليت شـــعري! بـــأي أعمالك استبشرت؟! وبأي أحوالك اغتبطت؟!

ثم يبكي حـــتى يبل عمامتـــه! ويقـــول: (استبشر والله بأعماله الصـــــالحة، واغتبط والله بإخوانه المعـــــــاونين له على طاعة الله).

أخي: الوقـــوف بـــديار المـــوتى يـــذكر الموت.. ورؤية القبور تذكر القبر.. فيا لحظ نفس اعتـــبرت بـــالقبور.. وعملت ليـــوم

النشور.

قال رسول الله ﷺ: «**زُوروا القبور فإنها تذكركم الآخرة**» رواه ابن ماجه/ صحيح ابن ماجه: 1591.

كان أبو الدرداء ﷺ يقعد إلى القبور، فقيل له في ذلك!

فقال: (أجلس إلى قوم يذكرونني معادي، وإن قمت عنهم لا يغتابونني!).

وقيل لبعض الزُّهَّاد: ما أبلغ العظات؟!

قال: (النظر إلى محلة الأموات!).

أتَيْتُ القُبورَ | أينَ المُعَظمُ
وأين المذل | وأين القويُّ على
تفانوا جميعًا فما | وماتوا جميعًا
فيا سائلي عن | أما لك فيما مضى

أخي المسلم: يا لشدة يوم ترحل فيه إلى باطن التراب.. وتفرد فيه للوحشة وعظائم المصاب.. انقطعت اللذات.. وجفاك الأهل والقرابات..

أخي: ألا فلتفزع معي إلى الرحمن الرحيم.. رب العباد وواهب الفضل العظيم..

(يا من لا يأنس بشيء أبقاه، ولا يستوحش من شيء أفناه، ويا أنيس كل

غريب، ارحم في القبر غُربتي.

ويا ثـــــاني كل وحيد آنس في القــــــبر وحدتي) أبو سليمان الداربن رحمه الله.

﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آَمَنُــــوا بِـــالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآَخِـرَةِ وَيُضِلُّ اللَّهُ الظَّالِمِينَ وَيَفْعَـلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ [إبراهيم: 27].

* * * *

* * * *